طه حسين

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

كان « الهلال » قد اقترح على الاديبين الكبيرين الاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين أن يكتب كل منهما موضوعاً يفضي فيه برأيه في أدب صاحبه ونواحي تفكيره . وقد قبلا هذا الاقتراح على ان ينشر المقالان في عدد واحد . ولكن عرضت للاستاذ طه حسين مشاغل في برامج التعليم اضطرته الى تأجيل كتابة مقاله . وكان الاستاذ العقاد قد كتب مقاله ، فرأينا ان ننشره بعد استئذانه في هذا العدد . أما الدكتور طه فقد وعد قراء الهلال بنشر مقاله في عدد قادم

للقدماء ضروب من التوقر يستخف بها المحدثون ولا يحفلون بها وحق لهم أن يستخفوا ولا يحفلوا ، لأنها ترجع إلى أسباب خاطئة في زمانها فضلا عن الأزمنة الحديثة ، وليس أدل على قلة الحياة من كثرة البحث فيا يجوز وما لا يجوز ، لأنه دليل على كثرة القيود

وأول ضروب التوقر التي يحق للمحدثين أن يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الاحياء وقصر التاريخ والتقدير على من فارقوا الحياة ، فربما كان مصدر هذا العرف عند القدماء أنهم كانوا يكبرون السلف ويحصرون فيه العلم والمعرفة والأدب والخلق والشهرة . وكأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياة أو بين الشهرة والحياة في وقت واحد : فاما حياة وخمول واما موت وشهرة ، ولا توسط بين الامرين في تاريخ العلماء والادباء وتقدير حظوظ العلم والأدب

وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الاحياء للاحياء . بل كثرت تراجم الأدباء لأنفسهم بأقلامهم ونشرها في إبان حياتهم ، وتلك علامة خير وصلاح ، لأن ماخف من جانب التوقر انما يزيد في جانب الحياة ، ولأن اساغة التاريخ للاحياء تدل على رحابة الصدر والتفاهم على الطبيعة الانسانية فى جوانب كمالها ونقصها واطرائها وعيبها ، ولأن العصر الذى يساغ فيه الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذى تتوافر فيه المزايا والمحاسن ، فلا يضار المرء بالنقد لانه يعرف حدود الطبيعة الانسانية وما يبقى له بعد النقد من وجوه التحبيذ والترجيح

ولست أنا من أعداء القديم حباً لعداوة القديم ، ولكنني اكره التحرج الكثير في غير طائل ، وأشايع زمني في هذه العادة خاصة ، فلا أرى حرجاً في الثناء على الدكتور طه حسين

أو اغتيابه على ملأ من الناس . . . ولهذا أجبت دعوة « الهلال » حين دعانى الى اجمال رأى في الصديق العالم الاديب ، وهو يعدنى أو ينذرنى بمثل هذا النصيب ! وقبلت الكتابة وأنا أرجو ألا أكون مغلوباً حين تنكشف الورقتان المطويتان . إذ الكلام في كلينا سر مكتوم عن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تشيع الغيبة و ينجلى السر عن أحسن الحيطة والتخمين

أنا ضامن أن الدكتور طه حسين سيقول انني شاعر ، فليضمن الدكتور طه حسين إذاً أن أقول فيه إنه كاتب ناتج في الادب ، وخير ما نتجه كتابه « الايام » وكتابه « في الصيف » وهما الكتابان اللذان سرد فيهما بعض ما جرى له فى حياته ، فكان فيهما مثلا في البساطة والثقة التى تعزف بصاحبها عن التماس التأثير المصطنع بالتعمل والتجمل والطلاء والتزويق ، فالموصوف في هذين الكتابين صادق بسيط والوصف كذلك على مثل هذه الحال من الصدق والبساطة ، ولكني لم أطلع على شيء يصف به الدكتور ما لم يجر له أو يصف ما يخلقه من الشخوص والحوادث في عالم الرواية . فما علة ذلك يا ترى ؟

أنا ضامن أن الصديق الاديب سيجد عيباً أو عيوباً في شعرى يقيسها بمقياسه و يقدرها بمعياره . فاذا ضمنت هذا فليضمن الصديق الاديب أن أهمل قلة الوصف المخلوق في كتاباته القصصية بعيب فيه وهو قلة الخيال . . فهو يصف ما يعالجه من المحسوسات ولا يتخيل ما عداه من نقائضه أو مشابهاته ، والعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التى يندر من يحسنها و يشعر بالكفاية التى تأتى من الثقة والاطمئنان الى صدق الشعور ، وهو عوض فيه غنى لمن يحسن الاستغناء

***

أما طه حسين الناقد فماذا أقول فيه ؟

أقول إنه اطلع على الادب العربى القديم اطلاعه الواسع الذى لا جدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الاغريق واللاتين الاقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الادباء الاوربيين ولا سيما الفرنسيين . وكل أولئك خليق أن يحبب اليه الصحة والمتانة والقوة و يبغض اليه الزيف والسخف والركاكة . فهو يختار ما يعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين ، و ينبذ ما يستطيبه المحدودون من أصحاب الاطلاع القليل أو أصحاب الذوق السقيم ، وله في ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ، واعتماد على فكر لا يتقيد إلا بما يرضاه

والى هنا لا أظن أن الدكتور سيعترف لى بأقل من هذا القدر في ميزان الكتابة المنثورة فأنا راضٍ على هذا التقدير

ولا أظن كذلك أنه سيعترف لى فى هذا الميزان بلا تعقيب ولا استدراك ، فلنسرع اذن الى التعقيب والاستدراك . ولا لوم ولا اجحاف

فالدكتور صحيح الاصول في النقد ولكنه لا يوفق بين أصوله وطبيعته فى كثير من الموضوعات

وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب

ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحياناً عن الصواب

وعلة ذلك كما أسلفنا أن القاعدة والطبيعة عنده لا تتفقان

فالطبيعة عنده لا تحتكم الى الخيال والتصوير الخالق ، ولكنها تحتكم الى الرأى والاطلاع فيقع من هنا التباين والاختلاف

أليس الدكتور يوصي بمبدأ « الشك » أو مذهب ديكارت ؟

بلى ! ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين . فلا يعجب — أكثر ما يعجب — إلا أشد الاعجاب ، أو إعجاباً لاحدله ، ولا يقنع بما دون الاسراف وترديد كلمة الاسراف ، ولا يغضب الذين يتحدث عنهم إلا غضباً شديداً ، ولا يضيقون إلا أشد الضيق ، ولا يتكلمون إلا بصيغة المبالغة في معظم الاشياء ... ثم تنتقل من هذا الى تشكيك يذكرك « بان شاء الله » التى قالها جحا حين ضاع المال ... فقال ضاع المال ان شاء الله . . .

كأن الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحا من تلك الكلمة التى نسيها فضاع ماله ، فأنت تسمع منه : « أزعم أننى ضحكت ! » وقد أزعم . . . وقد أتردد . . . وقد أقول وقد لا اقول » ... مع أن المرء لو أقسم جاهداً : « والله لأزعمن وتالله لأترددن ، وبالله لأقولن » لما خرج بالقسم ، مع الزعم ، من دائرة الشكوك

والقاعدة تستقر على اطراد اذا كانت هى والطبع على وفاق ، غير انهما عرضة للاختلاف اذا وقع بينهما الخلاف ، ومن هنا ترى الدكتور يقول مرة إن أصول النقد الغربى واحدة قد وضعها اليونان قديماً وفرغوا منها ، وتلقاها منهم الانجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون

فهم لا يختلفون . ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة إن النقد ليست له أصول مقررة عند الناقد الفرد فضلا عن الامم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وان الناقد يستحسن أو يستهجن والمرجع الى ذوقه وحده في استحسانه واستهجانه

ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذى جعل الدكتور ينكر الجديد اذا جاءه في زى القديم ، أو هو الذي جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها في حكم الطبيعة . لانه يجرى فى مطالبته على القياس

وأقول للقلم : على رسلك ! إلى أين ؟ ما احسبك إلا متوقعاً الكثير من تعقيب الدكتور واستدراكه فانت تستوفى المثل وتأمن ان تزيد

ويقول القلم : ما أحسبنى والدكتور مغلوبين على كل حال في هذه الصفقة . وليس الحق فيها بمغلوب

نعم ، وحساب الدكتور أو « رصيده » كما يقولون فى لغة المصارف كثير ، ففيه بقية وافرة بعد كل تعقيب واستدراك

واذا قلت إن الدكتور أمن استحسان السخيف من الادب فاختلافك بعد ذلك في زيادة القيمة التى يقوّم بها الجيد أو نقصها انما يغير الثمن ولا يغير جودة الشيء الثمين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

ومن حساب الدكتور طه حسين أنه رجل جرىء العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدي ، يستفيد مما يقتنع بصحته ومما يعينه على التحدى والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه ، ولهذا تغير اسلوبه الكتابي بعد دراسته للاساليب الاوربية ،فاتخذ له نمطاً يوافق علمه بالعربية الفصيحة وعلمه بتقسيم المقاطع والفواصل فى الكلام الاوربي، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة في وقت واحد . فهو يتحدث ولاينسى أنه يكتب ،ويكتب ولاينسى أنه يتحدث، وأسلوبه الذى اختاره أوفق الاساليب لذلك جميعاً وأولها من نوعه في اللغة العربية . وليس فيه محاكاة لاسلوب آخر في اللغات الاوربية

ولو كانت كتابته حديثاً محضا لاسترسلت بلا توكيد ولا تكرير ، ولو كانت تقريراً محضاً أو درساً محضاً لما انحرفت عن اسلوب الكتابة الذى لايتحدث به القائل ، ولو كانت تقريراً أو درساً على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الاوربية وجرت على سياق قريب من سياق الدروس الازهرية ، ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلايوافقها

إلا ذلك الاسلوب الذى استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون ، وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ! ولاجل هذا الابتداع يغتفر ما في كتابة الدكتور من اسهاب وتكرار

ولقد أفاد بأسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الرأي ولم تقنعهم المناقشة . فرأوا ان العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على اسلوب غير أسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع ، ورأوا كاتباً كبيراً يكتبها كما يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتنكتب » وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة ، والفوا تعديد الاساليب وطرائق التعبير الى غير انتهاء

وذلك وحده فتح قدير

وقد جار نصيب القوة في الدكتور طه حسين على نصيب العمق كما أشرت الى ذلك في تقدى لكتابه « في الصيف »

وليس بالقليل بين اكبر الادباء العالميين من هو قوى لا يتعمق . فاني لا اكتب هذا المقال بعد أن فرغت من قراءة مقال للشاعر الاسباني ميجويل دي انا مينو كتبه ليمثل به رأي الاسبان بين سائر الآراء التي نشرتها مجلة « الشهر » الفرنسية عن فكتور هوجو لمضى خمسين سنة على وفاته . فاذا هو يقول إن عمله في اسبانيا على الاقل كان واسعاً اكثر مما هو عميق ، وارجو ألا يحسب الدكتور انني أعود به الى التفرقة بين السكسون واللاتين اذا اضفت الى هذا ان شاعر الامة الاسبانية اللاتينية يقرر أن « بيرون » والشعراء الانجليز هم الذين وجهوا ادب تلك البلاد ، وليس فكتور هوجو ولا الشعراء الفرنسيون ، وأنه ليقرر ذلك في مجلة فرنسية تحتفل بهوجو في عام ذكراه !

***

والآن وقد أبرأت ذمتى وافضيت بمجمل الرأى مع الحيطة والمعادلة والتربص فاني على ما ارجح كاسب ولست بخاسر . فان اختلف تقديرى فسأتهم محرر الهلال بافشاء السر واطلاع مناجزي على ما اعددت له قبل ان يتأهب لي بسلاحه ، والمناجزة يومئذ بيني وبين محرر الهلال !

عباس محمود العقاد